غسان مراد

الذكاء الاصطناعي: حتمية الحضور...

في هذا العدد عدّة موضوعات عن الذكاء الاصطناعي... ماذا يعني ذلك فعليًا؟

الذكاء الاصطناعي بات يفرض حضوره حتى على من لا يستدعيه، فلأول مرة منذ انطلاق المجلة، نلاحظ أنّ الأبحاث كلّها مرتبطة بصورة أو بأخرى بالذكاء الاصطناعي. فهل هي صدفة، أو أنّ الذكاء الاصطناعي بات حتمي الحضور في البحث العلمي؟ بالطبع، فمع عدم قناعتي بالصدف أميل إلى السبب الثاني.

وقبل الدخول الفعلي في المقدّمة، من الجيد الإشارة إلى أنّ هذه الأبحاث في مجلة تصدر عن كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وليس عن كلية علوم صحيحة، وهذا ما يحتّم علينا التنبّه إلى الفرق الشاسع بين ما هو قابل للحساب وبين ما هو صعب الحوسبة. فالفيزياء والرياضيات وعلوم الأحياء كلّها تتناسب مع طبيعة الحساب كون الالتباس اللغوي فيها غير شائع، وفي حال وجوده تكون نسبة الالتباس أقلّ. أما في العلوم الإنسانية فالأمر مختلف جذريًّا، إذ تتداخل الدلالات، وتتعدّد القراءات، ويغدو المعنى نفسه موضع تأويل، وهذا بطبيعة الحال ما يثريها، شرط أن تبقى إنسانيّة لا آليّة. فحوسبتها آليًّا ستأخذ منها هذه الجاذبية التي تجعلها محرّكًا للعالم، وبخاصة محرّكًا لإنسانيته التي باتت في حالة تخبّط، خائفة من زوال العقل والتفكير في دهاليز الرقمنة والرقميّة، مصطلحان متلازمان فعلًا وتفاعلًا: الأول، تنفيذي والثاني، تنظيري.

وهذا التمييز بين "الرقمنة" و"الرقمية" أمر ضروري ، في تقديري، وهو مفتاح فهم ما يجري فعلًا في العلوم الإنسانية اليوم، ومنطلق هذه المقدمة. فالرقمنة، في معناها المباشر، هي فعل تنفيذيّ يقوم على تحويل البيانات، بمعزل عن نمطها، إلى صيغة رقميّة قابلة للمعالجة الحسابية. أما الرقميّة، فهي مستوى آخر تمامًا، إذ نعدّها إطارًا يتشكّل فوق هذا الفعل، وبالتالي تتطلّب منطقًا مختلفًا في التفكير، ومنهجية مختلفة،

بهدف إدراك العالم وتنظيم المعرفة. والخلط بينهما لا يتعلّق بالتفريق الاصطلاحي فحسب، لأنه يفضي إلى سوء فهم أعمق لما يجري في ما يتعلق بهذه القضية .

ومن هنا تتبيّن لنا الإشكالية بوضوح: إذ إنّ السؤال لم يعد تقنيًا يتعلّق بكيفية تحويل البيانات، ليتحوّل إلى سؤال معرفيّ حول ما يحدث للمعنى ذاته، وهل تبقى المعرفة على حالها أم تنزاح تدريجيًّا نحو ما يقبل الحساب فقط. وفي هذا المستوى بالتحديد نلاحظ هذا القلق والتوتر ، إذ إنّ هيمنة الرقمية، بوصفها منطلقًا، من الممكن أن تدفع إلى تهميش كل ما لا يُختزل ولا يُقاس، أي ذلك البعد التأويلي الذي تقوم عليه العلوم الإنسانية أساسًا، وعندها تتحوّل الأداة إلى مرجعيّة، ويصبح كل محتوى لا يدخل ضمن منظومة الحساب خارجًا عن الاعتبار.

في هذا السياق، سياق التشتت الحاصل معرفيًّا، ستكون الأزمة كبيرة عندما تصبح الأبحاث عن الذكاء الاصطناعي، كما نلاحظ أحيانًا، مكتوبةً بالذكاء الاصطناعي، وأحيانًا لا تتجاوز عرض تطبيقاته. هنا تحديدًا تكمن المفارقة، أو المأزق نفسه تحديدًا، إذ يتحوّل البحث إلى انعكاس لآلة ينتقدها، وهذه بحدّ ذاتها ستكون بوادر الانحراف الكبير أو الانزلاق بحقّ الإنسانية وعلومها، هذا أولًا. وثانيًا، لم يعد الإنتاج في موضوع الذكاء الاصطناعي حكرًا على المختصين، إذ بات كل من يعرف "الضغط" على لوحة المفاتيح، أو "لمس" الشاشة، أو حتى "الهمس" (استخدام الصوت) للتفاعل معها، قادرًا على كتابة نصوص، حتى أنّ بعضهم لا يقرأها، وبعضهم الآخر "يحشر" فيها مجال الذكاء الاصطناعي، وهذا ما يمكن ملاحظته بوضوح في كثير من النصوص المتداولة على المنصات الرقمية. نصوص تتكدّس فيها المفاهيم فوق بعضها، حتى إن الذكاء الاصطناعي الذي ولّدها، ولادةً قسرية وقيصرية، لا يفهمها.

وبتنا نشهد مفاهيم تنتشر على "سطح الحائط الرقمي" من الميتافيزيقيا إلى الميتا– نظرية، ومن الأنطولوجيا إلى الإبستمولوجيا، إلى الظاهراتية والتفكيكية، إلى حقول "يونغ" النفسيّة واللاوعي الجمعي، مرورًا بالهيمنة الرمزية والرأسمال الثقافي، بالسرديّات الكبرى والتناص والميتاسرد، وصولًا إلى نسبية أينشتاين وجاذبية

نيوتن، في نصٍ لا يحتاج إلا لاستخدام كلمات بسيطة واضحة لتحليلها، كلمات قد تكون أحيانًا أكثر مناسبة للغرض من كل هذه المهاترات اللغوية المباحة، والمستعملة بلا حرج، وكأننا في سوق النخّاسين.

إن سرد هذه المفاهيم لا يعني عدم ذكرها واستخدامها، طبعًا، ومنها ما هو مذكور في نصي، فأنا "مغرم" بمجملها، لكن أحاول دائمًا أن يكون لها دور في سياقها الذي يمنحها معناها. فلست هنا بصدد رفض المفاهيم، ولكن على أن لا تستخدم خارج سياقها الفكري والمعرفي.

في الواقع إنّ هذه المفاهيم هي من صُلب عملنا الإبداعي في العلوم الإنسانية، وهي أدوات أساسية في التفكير والتحليل، ولا غنى عنها في فهم الظواهر وتعقيداتها. لكن أحيانًا يقتضي الفعل البحثي فهمًا حقيقيًا لها كأدوات، لا مجرد استحضارها، بما يتناسب مع قدرات الباحث وإمكاناته الفعلية، ومع طبيعة البحث نفسه وتقبّله لما يرد في النص. إذ إنّ تراكم المصطلحات لا يؤدي إلى بناء معرفة، كما أنّ التعقيد لا يُنتج عمقًا معرفيًا، بالعكس من ذلك، من الممكن أن يتحوّل، في كثير من الأحيان، إلى عبء على المعنى، وعائقٍ أمام الفهم.

فما ينبغي أن نعمل عليه هو أن نكون أكثر وضوحًا، لا بمعنى التبسيط المُتخلخل، إنما بما يسمح بقول ما يجب قوله بأقلّ قدر ممكن من اللف والدوران. وضوحًا يتيح للفكرة أن تظهر تُناقش كما هي وكما ينبغي، وأن تُبنى عليها معرفة قابلة للفهم والتداول. بهذا فقط نستطيع أن نتعامل بحكمة مع الذكاء الاصطناعي، لا بوصفه منتجًا نهائيًا للمعرفة، إنما أداة تستدعي وعيًا نقديًا في استخدامها، وحدودًا واضحة في الاعتماد عليها.

وفي سياق حتمية الحضور على الشاشات، هذا يعني، أيضًا، أن على العلوم الإنسانية أن لا تغيب عن الشاشات، لأنّ الشاشات على أنواعها الصغيرة والكبيرة لن تنتظرها. فإن لم تكن هي الحاضرة بتحليلها الممنهج ووعيها النقدي، سيحلّ مكانها التخبط الإعلامي العشوائي الذي لا يميز بين أداة ومرجعية من

جهة، ولا بين سؤال وادّعاء من جهة ثانية. فالعلوم الإنسانية، بما تملكه من منهجية في التأويل وعمق في قراءة الظواهر، هي الأجدر بملء هذا الفراغ، لا بالتحفظ على وجوده.

غير أنّ ثمة أمر آخر لا يمكن التغاضي عنه، بين ما يمكن تسميته علوم الشاشة وشاشة العلوم. فعلوم الشاشة هي ذلك المحتوى المتكاثر الذي تُنتجه الآلة أو يُنتجه من لا يفهم ما يتفوّه به، محتوى يرتدي ثوب المعرفة ولا يحمل من العلم غير بعض الكلمات المفتاحية التي يرددها لتوحي بالمعرفة. فعلماء الشاشة لا تبرزهم الكفاءة، وإنما تُظهرهم الخوارزمية لأنها أتاحت لهم المنبر، لا لأن المعرفة أهّلتهم له! فهم يتكلمون كثيرًا ولا يقولون شيئًا، ويستعملون كل المفاهيم إلا المفهوم الذي يخدم الفكرة. فعلماء الشاشة لا يعلمون إلا الشاشة.

أما شاشة العلوم فهي ما ينبغي أن تكون عليه العلوم الإنسانية حين تُقرّر الحضور، أي توظيفًا واعيًا للشاشة بوصفها فضاء للتحليل الممنهج والوعي النقدي، بعيدًا عن المزايدات العشوائية بالمفاهيم.

بهذا المعنى، تغدو شاشة العقول هي الصورة الممكنة لما ينبغي أن يكون عليه الحضور المعرفي، حين يملك صاحب المعرفة جرأة الظهور، وتصبح الشاشة بالنسبة له منبرًا للتحليل بعيدًا من الاستعراض وجمع "الليكات".

وبالتالي، ماذا يتطلّب كل ذلك؟

يتطلّب أن ندرك أننا أمام إمكانات لا متناهية من الناحية النظرية، غير أنها تستوجب على صعيد الممارسة مواكبة بعيون نقدية إنسانية، انطلاقًا من علوم إنسانية، لا تقطع مع ماضيها، إذ تستند إليه لتوظف الأداة الرقمية فيما يخدمها لا فيما يلغيها.

وهذا بالضبط ما تسعى إليه أبحاث هذا العدد، آخذين بالاعتبار البعد من الضجيج القائم لكي لا نضيف ضجيجًا فوق ضجيج، ولا لتكديس المفاهيم فوق مفاهيم، إذ إنها تطرح كلّ منها من زاويتها الخاصة مقاربات تستثمر تطبيقات الذكاء الاصطناعي فيما يخدم العلوم الإنسانية. وهذا بهدف محاولة تعزيز البقاء والحفاظ

على موقعها الصحيح بوصفها منظومة فكرية تستدعي منطقًا مناسبًا، على أن تشكّل ركيزة أساسية للتفكير وطرح الأسئلة بعيدًا من الأجوبة الخالصة التي هي كما نلاحظ، حتى الآن، عبارة عن إعادة تدوير لما سبق، لذلك علينا فهم الشاشة بصورة تتيح تجاوز وهم "الترند" والتوجّه نحو السؤال الذي يستحق أن يُطرح.